

جهود فقهاء المالكية في الإصلاح بين أمراء الطوائف "الإمام الباجي نموذجا"

Efforts of the Maliki jurists in reform among the princes of the sects

"Imam al-Baji as a model"

بوسيف سنوسي*¹، يوسي الهواري²

¹كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية جامعة وهران (الجزائر)، boucifhocine@gmail.com

²كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية جامعة وهران (الجزائر)، Youssi.lahouari@gmail.com

تاريخ القبول: 2021/11/22

تاريخ الإرسال: 2021/10/15

ملخص:

يعتبر الإمام أبو الوليد الباجي أحد أعلام المسلمين الذين حاولوا إصلاح حالة الاحتقان السياسي الذي عصف ببلاد الأندلس خلال عصر الطوائف، فسعى بين ممالكها يدعوا إلى وحدة الصف الأندلسي ويحذر من عواقب الاختلاف والافتراق.

ورغم كل هذه المحاولات الحثيثة من قبل الباجي لجمع كلمة الأمراء المتناحرين إلا أن هذا الإصلاح السياسي لقي رفضا مطلقا من قبل السلطة الحاكمة، وقفت العديد من العراقيل سدا منيعا ضد أي محاولة لنبد الخلاف والتفرغ لرد عدوان النصارى.

الكلمات المفتاحية: أبو الوليد الباجي؛ إصلاح سياسي؛ بلاد الأندلس.

Abstract

Imam Abu Al-Walid Al-Baji is considered one of the prominent Muslims who tried to reform the political tension that afflicted the country of Andalusia during the era of the sects.

Despite all these strenuous attempts by Al-Baji to gather the word of the warring princes, this political reform was completely rejected by the ruling authority, and many obstacles stood as an impenetrable dam against any attempt to renounce the dispute and devote themselves to responding to the aggression of the Christians.

Keywords

Abu Al-Walid Al-Baji; political reform; country of Andalusia.

1- مقدمة

مع نهاية حكم الأمويين للأندلس بعد سقوط "قرطبة" آخر عاصمة لهم سنة (422هـ)؛ تفككت الوحدة السياسية لهذه الديار وأصبحت ممزقة الأركان، وانقسمت إلى عدة دويلات متناحرة فيما بينها؛ على رأس كل قطر منها أمير متغلب عليها يسعى لبط نفوذه وتوسيع رقعة حكمه؛ طمعا في كسب ولاء الناس ونيل الزعامة على سائر الملوك، فتنافس ملوك الطوائف بينهم لأجل هذا تنافسا شديدا وتقاتلوا قتال الأعداء، ووصل الأمر إلى اشتعال حرب طائفية بينهم أهلكت البلاد والعباد، واستمرت هذه الحروب الداخلية لسنوات عديدة وساءت معها أحوال أهل الأندلس الاجتماعية، فسفكت دماؤهم هدرا وخربت الدُور والأبنية، ونهبت أموال الناس بالباطل، واستأثرت الطبقة الحاكمة ومن يوالها بتملك الأموال والأراضي الواسعة في حين عامة الناس تعاني قسوة الحياة وظروف معيشية كادحة.

ورغم كل هذه الفتن العظيمة والمحن الشديدة التي عصفت بالأندلس بقي العلماء و الفقهاء يتفرجون ولا يحركون ساكنا، بل إن الكثير منهم جنحوا إلى قصور الأمراء يزينون لهم سوء عملهم، و يبررون لهم تصرفاتهم و ظلمهم، غير أن الإمام الباجي كان على خلاف طريقة هؤلاء في تعاملهم مع هذه الاضطرابات السياسية، فجهر بدعوة إصلاحية مباركة رغبة منه في توحيد الصف الأندلسي تحت راية واحدة.

ومن خلال هذا البحث نريد الوقوف على هذه الجهود السياسية التي بذلها هذا الإمام في سبيل إصلاح ذات البين بين ملوك الطوائف، وذلك من خلال الإجابة على التساؤلات التالية :

ماهي دوافع الباجي في النهوض بمشروعه الإصلاحية؟ وما هو موقف الأمراء من هذا

المشروع؟

2- الحالة السياسية خلال عصر الباجي

1-2- تفكك أركان الدولة الأموية

بقيت بلاد الأندلس تابعة لحكم الأمويين بالرغم من سقوط خلافتهم المركزية وانتقالها إلى العباسيين سنة (138هـ)، وذلك بعد أن تمكن عبد الرحمن الداخل الأموي من الفرار إلى مدينة قرطبة وأسّس بها إمارة مستقلة عن سلطانا الدولة العباسية (المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، 1978، صفحة 54)، وقد شهدت هذه البلاد استقرارا سياسيا وتدرجا حضاريا كبيرا خلال فترة تبعيتها للأمويين بلغ ذروته في القرن الرابع الهجري، غير أنه مع بداية القرن الخامس الهجري أخذت الأمور السياسية بهذه الديار تضطرب خاصة بعد أن تولى الإمارة هشام بن الحكم وكان يومها لم يكمل العاشرة من عمره، فاختلف الأندلسيين فيما بينهم وانقسموا بين مؤيد ومعارض لهذه الولاية، وانتهى هذا الصراع بوصاية الوزير الحاجب "المنصور بن أبي عامر" عن الأمير الصغير، وأصبح في حقيقة الأمر هو من يحكم البلاد والعباد (أبو العباس، 2013، صفحة 35).

وبعد أن لم يجد الأمويين من الخلافة إلا اسمها رفضوا هذه الوصاية وثاروا ضد الحاجب المنصور، وتمكّنوا بعد صراع شديد مع أنصار العامريين من استرداد الإمارة وتولية محمد بن هشام المهدي، فعاد بذلك حكم بني لبلاد الأندلس ولكن هذه المرة وسط حالة من الخلاف الحاد والافتتال الشديد بينهم على السلطة، وفي ظل ظهور انشقاقات سياسية داخلية وخروج بعض المناطق عن سلطان الأمويين، وقد استمر هذا الصراع حول العرش سنوات عديدة انتهى في الأخير بسقوط قرطبة عاصمة الأمويين سنة (422هـ) وتمزيق وحدتها السياسية (عنان، 1997، الصفحات 12-20)، وبهذا انقطعت الدولة الأموية من الأرض، وانتثر سلك الخلافة بالمغرب، واستقلّ الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالي بالجهات، واقتسموا بلاد الأندلس وقام عصر الطوائف في شكل ممالك ودويلات مستقلة عن بعضها البعض (المقري، 1988، صفحة 75).

2-2- صراع الهيمنة و بسط النفوذ

لم يتوقف الصراع بين أمراء الطوائف عند مجرد الاختلاف السياسي بينهم واستقلال كل أمير بناحية من بلاد الأندلس، بل تعداه ووصل إلى حد التنافس الشديد والافتتال العظيم سواء أكان ذلك في صورة النزاع بين أبناء الأسرة الحاكمة الواحدة، أو بين أمراء النواحي في صراعاتهم حول بسط الهيمنة وتوسيع رقعة المملكة، فأشعلوا من أجل تحقيق هذه المكاسب السياسية حروب داخلية بين الأندلسيين استمرت زهاء سبعين سنة (عنان، 1997، الصفحات 12-20)، فسفكت الدماء وخربت فيها الدور والأبنية ونهبت فيها الأموال وساءت أحوال الناس بهذه الديار وتغيّرت فيها أوضاعهم الاجتماعية.

- النزاع بين أفراد الأسرة الحاكمة : وقد كان هذا سمة مشتركة في جميع دول الطوائف تقريبا، حيث اشتد التنافس حول السلطة فما إن يستولي أحدهم على حكم المملكة إلا ويجد طائفة من أقاربه تنازعه وتنازعه، بل وتعلن الخروج عليه وتستبد ببعض أجزاء المملكة. فكثرت بذلك الخيانات وانتشر الغدر بين أفراد الأسر الحاكمة، ومن أبرز تلك الصراعات الداخلية ما حصل من نزاع واقتتال بين أبناء ذي النون في مملكة طليطلة حيث بعد أن تولى يحي المأمون بن ذي النون الحكم سنة (435هـ) خرج عليه أخوه عبد الرحمن وعمه أرقم بن عبد الرحمن (المراكشي، 1978، صفحة 281)، وكذلك الصراع بين أبناء سليمان بني هود في مملكة سرقسطة بعد وفاة أبيهم، حيث عين أبوهم لكل واحد منهم نصيبه من المملكة، غير أن ابنه أحمد "المقتدر" استولى على ملك ثلاثة من إخوته وقام بسجنهم، بينما بقي أخوه الرابع يوسف يناصبه العداة وأعلنت بعض مدن المملكة الولاء له على غرار مدينة بريشتر (حومد، 1988، صفحة 99).

- الحروب الطائفة بين الممالك : مع سعي كل أمير من أجل توسيع رقعة سلطانه وفرض هيمنته على خصومه دارت بين هؤلاء الأمراء حروب داخلية طاحنة كالحروب بين مملكتي أشبيلية وغرناطة والتي سار المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية بجنوده نحو مملكة غرناطة التي كان يحكمها

عبد الله بن بلقين الصنهاجي، وتمكّن من الاستيلاء على بعض مدن كمدينة جيان سنة 436هـ، وكذلك الحروب بين مملكتي سرقسطة وطليلطة وفيها استطاع سليمان بن هود أمير سرقسطة من ضم بعض الأجزاء من مملكة طليلطة وذلك بعد أن وجد مقاومة شديدة من أميرها المأمون بن ذي النون، وعن هذه الحال يقول ابن حزم: "إن كل مدير مدينة أو حصن في شيء من أندلسنا من أولها عن آخرها محارب لله تعالى ورسوله، وساع في الأرض بالفساد الذي ترونه عياناً، من شهنم الغارات على أموال المسلمين من الرعية ..." (ابن حزم، 1987، صفحة 32).

2-3- الإمام الباجي ومكانته العلمية

هو أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث الباجي، القرطبي، الأندلسي، القاضي المالكي وُلد سنة ثلاث وأربعمائة (403هـ) بمدينة بَطْلَيْوس (عياض، 1998، صفحة 347). وقد نشأ بين أهل بيت علم مشهود لهم بالصلاح والتقوى والنباهة وحُسن التدين مما دفعه إلى طلب العلم مُنذُ حداثته، وأخذ عن كبار الشيوخ الأندلسيين في عصره، وبعدها خرج إلى بلاد المشرق "ولم تزل أقطار تلك الأفاق تواصله، وعجائب الشام والعراق تغازله، حتى أجاب وشدّ الركاب، وودع الأوطان والأحباب" (ابن بسام، 1979، صفحة 95). فحجّ أربع حجج ومكث في المشرق ثلاثاً عشر سنة وسمع عن خلق كثير من علمائها حتى حاز علة علوم كثيرة، في الفقه والأصول والحديث واللغة وغيرها أهلتها ليكون فقيهاً فقيماً نظراً محققاً، راوية محدثاً، يفهم صيغة الحديث ورجاله، متكلماً أصولياً، فصيحاً شاعراً مطبوعاً، وقد تصدى هذا الإمام لخدمة العلم تأليفاً وتدريباً حتى توفي بمدينة "المرية" سنة 474هـ (ابن خلكان، 1972، صفحة 409) تاركا وراءه تصانيف مشهورة جليلة في أنواع كثيرة من المعارف والفنون، ولكن أبغ ما كان فيها الفقه وإتقانه، على طريق النُّظار من البغداديين وحدّاق القرويين (عياض، 1998، صفحة 348).

وبعد عودته إلى الأندلس وجد ابن حزم الظاهري يتصدر المجالس العلمية وقد قصرت ألسنة الفقهاء والعلماء على مجادلته، فجرت بينه وبين الباجي مجالس عديدة بجزيرة ميورقة الأندلسية (مخلوف، 2003، صفحة 120). استطاع خلال هذا الفقيه المالكي الرد على مذهب الظاهرية ودحض حججهم، فدفع ذلك ابن حزم إلى الاعتراف بموسوعية مناظره فقال عنه: "لم يكن لأصحاب المذهب المالكي بعد القاضي عبد الوهاب مثل أبي الوليد الباجي" (مخلوف، 2003، صفحة 120). ونظير هذه الجهود العلمية المباركة التي بذلها هذا الفقيه المالكي في نشر العلم والذب عن أهله نوه كثير من الفضلاء والعلماء بعلو مكانته وعظم منزلته بين أقرانه، فكثرت عبارات المدح والثناء عليه ومن ذلك :

ما ذكره ابن العربي عن قاصمة الفتنة والخبال الذي انتشر في بلاد الأندلس، فقال: "...ولولا أنّ طائفة نفرت إلى دار العلم، وجاءت بلباب منه، كالأصيلي والباجي، فرشّت من ماء العلم على القلوب الميتة، وعطّرت أنفاس الأمة الزفرة لكان الدين قد ذهب، ولكن تدارك البارقي بقدرته ضرر

هؤلاء بنفع أولئك" (ابن العربي، 1992، صفحة 488)، وقد وصفه الحافظ السيوطي الشافعي، فقال فيه: "الإمام أبو الوليد الباجي الفقيه الأصولي المتكلم المفسر الأديب الشاعر، برع في الحديث والتفسير والفقه وغوامضه، ورجع إلى الأندلس بعد ثلاث عشرة سنة، بعلوم كثيرة، وتصدر للإفادة وانتفع به جماعة كثيرة" (السيوطي، 2014، صفحة 13)، أما ابن خاقان فأثنى عليه قائلا: "بدر العلوم اللائح وقطرها الغادي الرائح،... كان إمام الأندلس الذي تقتبس أنواره، وتنتجج أنجاده وأغواره" (ابن خاقان، 1989، صفحة 215)، وقد زكاه الفقيه اللخمي المالكي في معرض الرد على من تهجموا على هذا الإمام بعد أن أجاز الكتابة على النبي الأمي، فقال: "ولا يجوز أن يؤذى إمام من أئمة المسلمين. معروف خيره وفضله، وصحة مذهبه، وعلمه بالفقه والكلام" (ابن بدران، 1979، صفحة 6)

3- الإصلاح السياسي عند الباجي

3-1- دوافع الباجي الإصلاحية

تذهب جل المصادر التاريخية إلى أنّ بعد عودة الباجي إلى الأندلس من رحلته العلمية المشرقية سنة ووجدتها تعيش في حالة من الاحتقان السياسي بين ملوك الطوائف، الذين تقاسموا البلاد وعاثوا فيها فسادا فأهلكوا الحرث والنسل، فحمل هذا الإمام ابتداء راية الإصلاح بين هؤلاء الأمراء الذين بعُدت بينهم الشُّقة وأصبح بأسهم بينهم شديد، وأخذ ينتقل من مملكة إلى أخرى يدعوا إلى وحدة الصّف وجمع كلمة،، ويحذّر في المقابل من عواقب الاختلاف والافتتال بين المسلمين، وعن هذه المبادرة يقول المقرئ: "لما قدم من المشرق إلى الأندلس بعد ثلاثة عشر عاما، وجد ملوك الطوائف أحزابا متفرقة، فمشى بينهم في الصلح..." (المقرئ، 1988، صفحة 77).

ولا شك أنّ هذا الإمام الجليل قد انتدب نفسه للقيام بهذه المهمة العظيمة الشاقة، بعدما رأى في كثير من علماء عصره عضدا وسندا لهؤلاء الأمراء، حيث يأكلون على كل مائدة، ويتقبلون في خدمات كل قصر، يبررون لهم طغيانهم وظلمهم، وتزكية أعمالهم وتصرفاتهم، وابتزازهم لأموال الرعية، فاحتضنهم أمراء الطوائف وأغدقوا عليهم العطاء (الحجي، 1981، الصفحات 240-241)، وقد صور المؤرخ ابن حيان هذه الظاهرة، فقال: "... فالأمراء القاسطون، قد نكبو بهم عن نهج الطريق زيادا عن الجماعة، وجريا إلى الفرقة، والفقهاء أئمتهم صموت عنهم، صدف عما أكده الله عليهم من التبيين لهم، قد أصبحوا بين أكل من حلوائهم، وخابط في أهوائهم، وبين مستشعر مخافتهم، أخذوا بالتقية في صدقهم" (أبو العباس، 2013، صفحة 254).

وفي ظل هذا السكوت من أهل العلم عن هذه الفتنة العظيمة التي نزلت ببلاد الأندلس قام الباجي داعيا إلى إصلاح ذات البين بين هؤلاء الأمراء المتدابرين، وهو يعلم يقينا أنّ السعي منه هو من أجلّ العبادات وأفضل الطاعات التي فرضها المولى سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، وذلك لعظم ما يترتب على اجتماع كلمة المسلمين من تقوية لشوكتهم وبذلك يخشى الأعداء جانبهم،

بخلاف ما لو بقوا مفترقين متنازعين فيفشلوا وتذهب ريحهم ويتسلط عليهم عدوهم، أضيف إلى ذلك أن الباجي يدرك أنّ الإصلاح بين الحكام يدخل في باب النصيحة لأنمة المسلمين التي أوجها الله تعالى على لسان رسول صلى الله عليه وسلم في حديث "الدين النصيحة" (مسلم بن حجاج، 2009، صفحة 46).

تذهب بعض الروايات إلى أنّ المتوكل بن الأقطس حاكم مدينة بطليوس هو من ندب أبا الوليد الباجي إلى القيام بأمر الصلح بين ملوك الطوائف (عباض، 1998، صفحة 348)، حيث كان هذا الأمير يُجَلُّ أبا الوليد الباجي ويقرّبه من مجلسه، وقد استعمله في حفظ الأمانات وعيّنه قاضيا على بعض الأماكن المتفرقة من مملكته، فأشار عليه بأن يُشرف على المهمة التّليّة قصد توحيد راية المسلمين تحت لواء واحد، فانشرح صدر الإمام لدعوة الأمير وأجاب له لطلبه (العبادي، 2008، صفحة 314)، غير أنه هذه الرواية يمكن تنفيذها حيث لا يعقل أن يحثّ على الإصلاح والمطالبة بتوحيد البلاد الأندلسية أمير استقلّ بحكم إحدى مدنها، وسعى كغيره من الخصوم إلى تخريب ديارها وهدم صرح وحدتها، فحاكم بطليوس طرف مشارك في الفوضى السياسية والانشقاق الداخلي، وسعى كغيره من الحكام إلى التوسع على حساب ما جاوره من مدن.

ويبدو أنّ الإمام الباجي أراد أن يستغل مكانته وحالة القبول التي يحظى بها عند بعض الأمراء من أجل عرض مشروعه الإصلاحية عليهم؛ لأنه كان في حياته حريصا على اجتناب مجالس السلاطين ومصاحبهم إلا ما كان لمصلحة، وهذا ما يشير إليه في نصيحته إلى ولديه قائلا: "واجتنباً صُحبة السلطان ما استطعتما، وتحرّيا البعد منه ما أمكنكما، فإنّ البعد منه أفضل من العزّ بالقرب منه، فإن صاحب السلطان خائف لا يأمن، فإن امتحن أحدكما بصحبته، أو دعته إلى ذلك ضرورة..." (الباجي، 1999، صفحة 33).

2-3- نشاط الباجي الإصلاحية

لقد كان الباجي في مشروع الإصلاحية متوجّها بدعوته إلى المستوى القيادي المتمثل في حكام الطوائف، كما كان له نشاط دعوي مماثل يخاطب من خلاله عوام الناس وطلّبه في مجالسه العلمية.

الدعوة الإصلاحية على المستوى القيادي:

لقد جاب الباجي بلاد الأندلس شرقا وغربا يعرضُ فكرة الصلح السياسي على رؤوس دول الطوائف، حيث كان يقيم في كل واحدة منها مدة ليست بالقليلة، وإنما اكتفت بذكر البعض منها: - مملكة بطليوس: وهي المدينة التي ولد بها الباجي وتقع في غرب الأندلس، وكانت تحت سيطرة بني الأقطس من البربر، وبعد أن قدم إليها الباجي حظي بترحيب كبير من حاكمها المتوكل بالله، واستعمله في حفظ الأمانات وأجزل له في العطاء وولّاه القضاء، كما دعمه في مشروعه السياسي وشدّ من عضده (العبادي، 2008، صفحة 337).

- مملكة بلنسية: تقع في شرق الأندلس و كانت تخضع لحكم بني عامر من اليمن، وقد قدم الباجي إليها في حدود سنة 468هـ، وقد وجد من حاكمها الترحيب، حيث كان يباهي المقتدر بانحياز الباجي إلى سلطانه وإيثاره لحضرته باستيظانه، ويحتفل فيما يرتبه له ويجريه وينزله في مكانه متى كان يُؤافيه (الحجي، 1981، صفحة 343).

- مملكة سَرْقُسْطَة: تقع في الشمال الشرقي للأندلس، وهي من أعظم ممالك الطوائف من حيث سعة رقعتها وموقعها بين دول إسبانيا النصرانية في الشمال، وكانت تحت حكم أسرة بني هود البربرية، وقد دخلها الباجي أكثر من مرّة وأقام بها مدّة طويلة، وكان على اتّصال بحكامها وعمل في محافظها (الحجي، 1981، صفحة 343).

- مملكة ألمرية: وهي آخر المدن التي زارها الباجي وبها توفي سنة 474هـ، وقيل أنه جاءها سفيرا بين رؤوس الأندلس يؤلفهم على نصره الإسلام، ويروم جمع كلمتهم، فتوفي بها قبل إتمام غرضه (ابن خلكان، 1972، صفحة 409).

وفي حقيقة الأمر أنّ المصادر أشارت إلى عدد يسير من تلك الممالك التي زارها هذا الإمام في إطار جهوده الإصلاحية، ولم تأتي على ذكر جميع رحلات الباجي السياسية التي قام بها هذا الإمام داخل التراب الأندلسي، ويبدو أنّ المؤرخين لم يكن لديهم صورة كاملة ومفصّلة عن عدد هذه الجولات الإصلاحية ولا تاريخها، لكن مع طول المدة التي عاشها هذا الإمام بعد عودته من المشرق، والتي وصلت إلى خمس وثلاثين سنة يكشف لنا عن مدى كثرة الممالك التي قصدتها الباجي، كما أنّه لا يُعقل أن يدعُو مُصلح إلى نبذ الخلاف السياسي بين رؤوس دول الطوائف وجمع كلمتهم، وبعدها لا يعرض مشروعه التوحيدي إلّا على أربعة أو خمسة منهم، والأندلس يومها ممزّقة إلى عشرين دولة أو أكثر.

الدعوة الإصلاحية على المستوى الشّعبي:

عاد الباجي إلى الأندلس وقد حاز خلال الرحلة العلمية المباركة التي استمرت حوالي ثلاثة عشر سنة علما غزيرا ومقاما رفيعا، حتى صارواحد من كبار أئمة المسلمين ببلاده، ينافح عن العلم وينشره وأصبحت حلقاته التدريسية معمورة مشهورة، يقصدها طلبة العلم من كل أرجاء البلاد الإسلامية، سواء من أهل بلده أو من الذين قصدوه من مختلف الأمصار، فسمع منه وروى عنه جمع غفير (ابن فرحون، 1963، صفحة 120).

ولعل أنّ الباجي كان في ثنايا هذه الجلق إضافة إلى تلقين العلوم الشرعية يُحدّث طلبته وعوام النّاس عن حال الانقسام السياسي الذي تتخبط فيه بلاد الأندلس، ويبيّن المفاسد المترتبة عن هذا الشقاق بين المسلمين، ويكشف مكر الأعداء، خصوصا في حلقات شرح صحيح البخاري في مملكتي بلنسية وسرقسطة (الحجي، 1981، صفحة 344)، والذي عقّد فيه كتابه جزءا خاصا سمّاه "كتاب الفتن" وقد أدرج تحته عديد الأبواب، منها: باب ظهور الفتن، وباب التعوذ من الفتن

وباب إذا التقى المسلمان بسيفيَّهما...، ولا يمكن أن نعتقد أنّ عالماً جليلاً كالباغي انتدب نفسه لإخماد نار الفتنة المشتعلة بين أمراء الطوائف أن يسكت أمام تلاميذه عن الفتنة الداخليّة التي حلّت بالأندلس، وهو يشرح هذه الأحاديث النبوية التي تحذّر المسلمين من الفرقة، وتنبّههم على خطر الفتنة وضرورة اجتنابها والتعوذ منها (رفيع، 2011، صفحة 91).

4- أسباب فشل مشروع الباجي الإصلاحية

1-4- رفض السلطة الحاكمة لدعوة الباجي

إنّ المساعي الحثيثة التي قادها الإمام أبي الوليد الباجي في سبيل التخفيف من حدة الاختلاف السياسي بين أمراء الممالك لم تأتي أكلها وباءت بالفشل، ولم تصادف دعوته الإصلاحية أسماً واعية، بل نفخ في عظام ناخرة وعكف على أطلال دائرة (ابن بسام، 1979، صفحة 33)، وأضاع ملوك الجزيرة على أنفسهم فرصة ثمينة لأجل توحيد الصّف الأندلسي، وظل الصّراع قائماً بينهم واستمر معه تطاحنهم واقتتالهم بالرغم مما كانوا يظهرونهم من قبول وترحيب بهذه المبادرة الإصلاحية، فأدى بهم ذلك إلى تراجع هَيْبَتِهِمْ وضعف شوكتهم، وعن هذا النفاق السياسي يقول المقرئ: "...وهم يجلّونه في الظاهر، ويستثقلونه في الباطن ويستدبرون نزعته وما كان أفطن الفقيه رحمه الله بأموهم وأعلمه بتدبيرهم، لكنه كان يرجو حال تئوب، ومذنباً يتوب..." (المقرئ، 1988، صفحة 77).

ومع التنافس الشديد بين ملوك الطوائف عن السلطة سارعوا إلى البحث عن المشروعية الدينية لسلطانهم، وذلك من خلال استغلال العلماء قصد الحصول على مزيد من التأييد الشعبي، فتنافسوا فيما بينهم للاحتفاء بالعلم والعلماء عامة وبهذا العالم الجليل على وجه الخصوص خاصة، وقاموا بدعوة أصحاب الفضل من الأئمة الأعلام للإشراف على المراكز العلمية، والإحسان إليهم وتولية البعض في الوظائف العليا في المملكة كالقضاء والوزارة والفتوى والاستشارة وغيرها (خلاف، 1992، صفحة 137)؛ وذلك باستغلال الثقة الكبيرة التي يحظى بها هؤلاء العلماء لدى عوام النّاس، وعليه يستطيعون التأثير على توجهاتهم السياسية، ومع ذبوع خير غزارة علم هذا الإمام وجلال قدره رغب الكثير من الحكام في دعوته إلى ممالكهم قصد الحصول على مباركته وتأييده لسلطانهم، لذلك نجدهم كانوا يظهرون تبجيله وإكرامه، والمباهاة بانحيازه رغبة في كسب ولاء الأندلسيين، ولم يكونوا يقصدون الالتفات إلى دعوته.

2-4- الانقسام الطبقي داخل المجتمع الأندلسي

يتكون المجتمع الأندلسي من قوميات مختلفة وأعراق متنوعة، فنجد إلى جانب العرب، البربر والصّقالبة" موالى العامريين" والمولّدون والمستعربون والموالي والإسبان وبعض اليهود، وقد شكلت هذه القوميات على الرغم من اختلاف ديانتها وعاداتها وثقافتها مزيجاً متحداً متماسكاً أسهم بشكل رئيس في ازدهار هذه الديار وتطورها ثقافياً وعلمياً واجتماعياً (بولعراس، 2006،

صفحة 116)، غير أنه مع بداية الاضطرابات السياسية في عصر الطوائف تحوّل ذلك المزيج العرقي للمجتمع من نعمة إلى نقمة على أهل الأندلس، حيث أصبح بأس تلك القوميات فيما بينها شديد وراح كل فريق يكيد للآخر ويعتبره عدوّه، بعدما كانوا بالأمس القريب وحدة متجانسة على قلب رجل (المراكشي، 1978، صفحة 88).

ولقد وقف هذا التنوع العرقي سدا منيعا في وجه أيّ مشروع يدعو إلى توحيد الصّف وجمع كلمة الأندلسيين تحت راية واحدة، خاصة في ظل استئثار العرب الأمويين بأمور الحكم والرياسة، وتوليّتهم الأهل والأقارب دون غيرهم في المناصب القيادية كالإمارة والقضاء والجيش وغيرها من المسؤوليات المهمة، إضافة إلى التباين المعيشي الكبير بين مكونات المجتمع الأندلسي، حيث كان العرب ومن يُوالّهم من وجهاء وأغنياء وكبار التجار يملكون الأراضي الواسعة وتُصرف لهم الرواتب من بيت المال، بينما عامة الناس تعاني قسوة الحياة وتعاني ظروف معيشية كادحة، وكان أغلبهم من البربر والموالي والمستعربين واليهود (خالص، 1965، صفحة 39).

وقد ولّد هذا التفريق العنصري لدى هذه الأقليات شعورا بالتهميش والإقصاء وإهمال لدورهم في خدمة المجتمع وبناء الدولة (بولعراس، 2006، صفحة 61)، فأدى ذلك إلى خُلُق جَو من الفوضى وعدم الاستقرار داخل الأندلس؛ برزت على إثره نزعة قومية تُقلّل من شأن العرب وتمهون من قدرهم وتدعم قيام الثورات والانتفاضات الداخلية؛ مما زاد في إذكاء نار الفتنة وتأجيج الحروب الطائفية حتى أصبح هذا التنوع العرقي بمثابة صخرة ترتطم بها كل دعاوي الوحدة والإصلاح التي جهر بها الباجي بين ملوك الطوائف.

3-4- ضعف الوازع الديني وانهدام الصرح الأخلاقي

لقد أُعجب أهل الأندلس بأخلاق الفاتحين وتعلقوا بهذه الشريعة السّخنة والتزموا أحكامها وحدودها، حتى قال أحدهم في وصف جيش الفاتحين "لقد نزل بأرضنا قوم لا ندري أهبطوا من السماء أم انبعثوا من الأرض" (المقري، 1988، صفحة 240)، واستمر الأندلسيين على هذه الحال من التدين والاستقامة إلى أن بُسطت عليهم الدنيا على أهل واسترسلوا في طلبها والسعي وراءها وخاصة خلال حكم الطوائف، حيث أصبح الاستهتار بقيم الدين الإسلامي إحدى الصفات المميزة للعرب في هذه الفترة، وساءت أخلاق الناس هناك وتغيّرت معاملاتهم، وهرعوا يتنافسون في تحصيل الشهوات وارتكاب الموبقات، سواء أكان ذلك في مجالس الحكام وقصورهم أو وفي دُور الناس وشوارعهم (بولعراس، 2006، صفحة 62).

وقد تعددت مظاهر هذا الفساد الأخلاقي وتنوعت داخل المجتمع الأندلسي، مثل انتشار ظاهرة المجون وشُرْب الخمر علنًا، وعقد الأمراء مجالس اللّهو والغناء والموسيقى، وتقريهم لأهل الأهواء والسوء، واشتغال الأمراء بتشييد القصور والمغالاتة في بنائها وتزيينها وتأثيرها بأجود أنواع الزينة والفرش، واستفحال السرقة وانتشارها في البادية والمدينة على حد سواء؛ وذلك نظير تردّي

الوضع الاجتماعي في الأندلس، بل ووصل الأمر إلى سرقة أكفان الموتى بعد دفنهم، كما انتشرت ظاهرة معاكسة النساء في الشوارع من طرف بعض الشباب، خاصة في بعض الأحياء المعروفة بأسواقها المعمورة كحي العطارين بقرطبة الذي يشهد إقبالا كبيرا من النساء قصد قضاء حاجتهن، واشتغلت النسوة بالبغاء وكان يطلق عليهن نساء دور الخراج أو الخراجيات، وكُن ذوات سمعة سيئة (بولعراس، 2006، صفحة 116).

وهكذا تبدلت الأحوال في الأندلس بلد التدين والالتزام، وبلغ الفسوق والانحلال الأخلاقي بها مبلغا عظيما، كان عاملا رئيسا في زيادة تعفن الوضع السياسي ولم تنفع معه أي دعوة إصلاحية لجمع الشمل وتوحيد أهل الأندلس، فكان ذلك الانحلال الخلقي مؤذنا بقرب سقوط هذه الديار وذهاب ملكها؛ وقد تحدّث ابن خلدون عن هذه السنّة الكونية في انقراض الأمم وزوال ملكها بقوله: "إذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل وسلوك طريقها، وهذا ما حدث في الأندلس وأدى فيما أدى إلى ضياعه" (ابن خلدون، 1992، صفحة 246).

4-4- تدخلات العدو النصراني في إطالة زمن الحرب

أدى صراع الرّعامنة وبسط النفوذ زمن الطوائف إلى قيام حرب طاحنة لم تعرف قرارا ولا ركوناً؛ لإصرار كلّ واحد من أطراف النزاع الداخلي على هزم خصومه وتوسيع حدود مملكته، ولو كان ذلك عن طريق الاستنجد بالعدو الإسباني، الذي كان يومها مسيطرا على الجزء الشمالي من الأندلس، فسارع هؤلاء المتناحرين في تقديم أئمن الهدايا وأنفس الأموال لملوك النصارى الدخول تحت حمايتهم ولوائهم، أو طمعا في تلقي بعض المساعدات منهم لدخّر الخصوم في الحروب الداخليّة، فمثلا: أبرم المنذر بن يحيى التّجيبّي معاهدة حسن الجوار بين مملكة سرقسطة وبعض الممالك النصرانية المجاورة لها، واستعانت به بعد ذلك بأمر برشلونة للقضاء على خصومه، وكذلك سعى سليمان بن هود في شراء عون النصارى (حومد، 1988، صفحة 100).

ولم يكن لملوك النصارى أن يُفوّتوا على أنفسهم هذه الفرصة الثمينة، فكانت الاستجابة سريعة منهم وعقدوا تحالفات مع بعض دول الطوائف قدّموا لهم بموجها العون والمدد العسكري لتأجيج لهيب الصّراع وإطالة زمنه، فعظمت الرّزية في الأندلس وأفسدت الحرب المشتعلة الحرث والنّسل، وضعفت معها شوكة المسلمين بعد أن ضرب العدو المتريص بعضهم بعضا، وهكذا أصبح العدو الصّليبي يفرض إرادته وأخذ سلطانه يقوى يوما بعد يوم، ولم يجد المستضعفين من أمراء المسلمين إلاّ المسارعة في دفع المال مقابل بقائهم على رأس الإمارة، وحصولهم على الحماية النصرانية، وبعد أن ملّ الإسبان من أخذ الجزية واطمأنوا لسوء حال المسلمين، أخذوا ينتزعون الأراضي الأندلسية من المسلمين في ردّ الأندلس إلى النصرانية وهو ما تمّ بالفعل بعد ذلك في حروب الاسترداد (المراكشي، 1978، صفحة 239).

واستغل الصليبيون هذه الظروف السياسية المزرية وأخذوا يكثرون من الغارات على الأراضي الأندلسية، فاستولوا على مدينة " بربشتر" سنة (456هـ) وتبعها سقوط " طُلَيْطَلَة" إحدى قواعد الأندلس ومراكز القوة فيه، وسقط عدد من المدن والحصون حولها ما مجموعه ثمانين منبرا بين مدن وقرى (الحجي، 1981، صفحة 351)، وبهذا وقع الذي كان الباجي يحذر منه.

ومع بداية التوغل النصراني بالأندلس غير الباجي من مسار دعوته واجتهد أكثر في التحريض على مواجهة هذا العدوان الأجنبي، وأصبح يطوف بين الملوك ويدعوهم - على الرغم من الاقتتال الدائر بينهم - إلى تكوين جبهة عسكرية واحدة للتصدي للهجمات الصليبية المتتالية. وقد دخل سرقسطة وبقي بها ثلاثة سنوات تولى فيها الدعوة إلى الجهاد حتى استعيدت " بربشتر" بعد سقوطها سنة (456هـ) (الناصرى، 1997، صفحة 33).

وعندما لم يُجِبْ الأمراء دعوة الجهاد، أسرع الباجي مع مجموعة من علماء بلده إلى الإفتاء بجواز الاستعانة بالمرابطين في عدوة المغرب، فأجابهم يوسف بن تاشفين إلى ذلك وعبر مع المرابطين إلى الأندلس، وانضم إليه بعض ملوك الطوائف بجيوشهم، والتقى المسلمون بالنصارى وانتصر الجيش المتحد من العدوتين المغربية والأندلسية في موقعة زلاقة سنة (479هـ) (الناصرى، 1997، الصفحات 34-35)، وكان قد مرّ حوالي خمس سنوات على وفاة الإمام الباجي.

5- الخاتمة :

- تتمثل جملة النتائج التي توصلت إليها من خلال هذه الدراسة في النقاط التالية
- اندمام الوحدة السياسية في الأندلس بعد سقوط حكم الأمويين بها، وتشتت سلطانه بين ملوك الطوائف، وتناحرهم فيما بينهم هو السمة الأبرز لهذه الفترة من تاريخ المسلمين في هذه الديار.
 - انتشار ظاهرة ركوب الدين بين أمراء الطوائف قصد كسب التأييد السياسي لسلطتهم، كان القاسم المشترك بينهم جميعا وذلك بتوظيف العلماء والفقهاء لاستقطاب العوام والتأثير في اختياراتهم السياسية.
 - كان التنوع التركيبي داخل المجتمع سلاحًا ذو حدين على أهل الأندلس، حيث لعب تعدد القوميات في البداية دورًا رئيسًا في نهضة هذه البلاد سياسيا وثقافيا واجتماعيا، وفي المقابل كان هذا التنوع العرقي أحد العوامل البارزة التي ساهمت في تأجيج الصراع السياسي الداخلي بين دول الطوائف والوقوف في وجه دعوة الباجي الإصلاحية.
 - استجابة العدو النصراني لدعوات الاستنجد من بعض حكام الطوائف، لم يكن على سبيل الإحسان من النصارى وإنما كان رغبة منهم في كسر شوكة المسلمين وإضعافها، وريح المزيد من الوقت لتقوية عُدتهم وعددهم من أجل الاستعداد لحروب الاسترداد.

- سواء أكان الباجي بادر من نفسه في مشروعه الوحدوي أو أشار عليه بعض الأمراء بذلك، فهذا لا ينقص من قدر العمل الكبير الذي قام به هذا العالم الفذّ خدمة لدينه وبلده وأهله، فهو بحقّ أدّى واجب التّصحّح لأئمة المسلمين يومها، وصدع بدعوته في حلق دروسه أو في قدومه على الحكام.
- الدعوة الإصلاحية المباركة التي قام بها الإمام أبي الوليد الباجي من أجل لَمَّ شمل أهل الأندلس تحت لواء سياسي واحد، أعطى من خلالها هذا الإمام مثالا رائعا عن حقيقة كمال أحكام الدين الإسلامي، وأنّه دينٌ شموليٌّ يشمل كافة الجوانب المتعلقة بحياة المسلمين، حتى ولو كانت سياسية منها، وفي هذا ردٌّ قويٌّ على من يريدون فصل الشريعة الإسلامية عن أمور السياسية.
- على الرغم أن جهود الباجي لم تُسفر عن نتائج عملية على أرض الواقع، إلا أنه هذا الفقيه قد نجح الفقيه على الأقل في وضع أمراء الطوائف أمام الأمر الواقع، وأشعرهم بمسؤوليتهم القومية وضرورة نبذ خلافتهم، وتوحيد كلمتهم لمجابهة الخطر النصراني.
- كان الباجي يحرض الأمراء على جهاد عدوهم الصليبي المشترك وذلك بدعوته أيضا إلى تكوين قوّة عسكرية واحدة تنصر الإسلام والمسلمين بالجزيرة الأندلسية، ويلتئم بها شمل ملوك الطوائف وملوك المغرب المرابطين، ولكن عوامل الانقسام كانت أقوى من جهوده، وحسبه أنه سعى والله يجازيه عن نيته.
- حالة عدم الاستقرار السياسي الذي كانت تعرفه بعض الممالك، حيث كان الصّراع فيها مُحتدماً بشأن الاستبداد بالحكم، مما أدى إلى أن يكون همّ حكامها هو التفكير في القضاء على من يناقضهم على السلطة والتغلّب عليه، ولم يلتفتوا إلى ما كان يدعو إليه الباجي.
- التدخل الأجنبي المتزايد من العدو النصراني ومساهمته في تأجيج الصراع الداخلي في الأندلس، وذلك بوقوفه وانحيازه لبعض الملوك وتقديم يد العون لهم قصد إطالة زمن الحرب الداخلية بين الأندلسيين.
- انحراف كثير من الأندلسيين حُكما وعوامًا بالأندلس عن منهج الله تعالى وعدم التزامهم بتعاليم الدين الإسلامي، أدنّ بقُرْب زوال سلطان المسلمين في هذه الديار؛ إذ أنّ كل تقدّم حضاري وسياسي وازدهار علمي وفكريّ للمسلمين كان مردّه إلى التمسك بتعاليم الإسلام، ويوم هوى العرب في الأندلس ونسوا فضائلهم التي جاؤوا بها هوى سلطانهم وسقط ملكهم.

قائمة المراجع

- 1- ابراهيم بن علي ابن فرحون. (1963). *الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب*. القاهرة: دار إحياء التراث.
- 2- ابن عباس أحمد بن محمد المقري. (1988). *نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب*. بيروت: دار صادر.
- 3- أبو نصر الفتح بن محمد ابن خاقان. (1989). *قلائد العقيان ومحاسن الأعيان*. الأردن: مكتبة المنار.
- 4- أحمد ابن محمد أبو العباس. (2013). *البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك المغرب*. تونس: دار الغرب الإسلامي.
- 5- أحمد بن خالد الناصري. (1997). *الأستقصا لأخبار المغرب الأقصى*. تونس: دار الكتاب.
- 6- أحمد بن محمد ابن خلكان. (1972). *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*. بيروت: دار صادر.
- 7- أحمد مختار العبادي. (2008). *في تاريخ المغرب والأندلس*. بيروت: دار النهضة العربية.
- 8- أسعد حومد. (1988). *محنة العرب في الأندلس*. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات و النشر.
- 9- الأندلسي ابن حزم. (1987). *رسائل ابن حزم*. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات و النشر.
- 10- النيسبوري مسلم بن حجاج. (2009). *صحيح مسلم*. بيروت: دار الجيل.
- 11- بن موسى اليحصوبي عياض. (1998). *ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك*. بيروت: دار الكتب العلمية.
- 12- جلال الدين عبد الرحمان السيوطي. (2014). *طبقات المفسرين*. السعودية: وزارة الأوقاف.
- 13- خميس بولعراس. (2006). *الحياة الاجتماعية والثقافية في عصر الطوائف*. باتنة، الجزائر: قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر.
- 14- سليمان بن خلف الباجي. (1999). *النصيحة الولدية*. الرياض: دار الوطن.
- 15- صلاح خالص. (1965). *اشبيلية في القرن الخامس هجري*. بيروت: دار الثقافة.
- 16- عبد الرحمان ابن خلدون. (1992). *المقدمة*. بيروت: مكتبة لبنان.
- 17- عبد الرحمان علي الحجي. (1981). *التاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة التاريخ الأندلسي*. دمشق: دار القلم.
- 18- عبد القادر ابن بدران. (1979). *تهذيب تلريخ ابن عساكر*. سوريا: دار المسيرة للطباعة و النشر.
- 19- عبد الواحد المراكشي. (1978). *المعجب في تلخيص أخبار المغرب*. بيروت: دار الكتاب.

عنوان المقال: جهود فقهاء المالكية في الإصلاح بين أمراء الطوائف "الإمام الباجي نموذجاً"

- 20- علي ابن بسام. (1979). *الندخيرة في محاسن أهل الجزيرة*. بيروت: دار الثقافة.
- 21- محمد بن عبد الله ابن العربي. (1992). *العواصم من القواصم*. القاهرة: دار التراث.
- 22- محمد بن محمد رفيع. (2011). *معالم الفكر الأصولي المالكي من خلال فكر الباجي الأصولي*. الأردن: عالم كتب الحديث.
- 23- محمد عبد الله عنان. (1997). *دولة الإسلام في الأندلس*. القاهرة: مكتبة الخانجي.
- 24- محمد عبد الوهاب خلاف. (1992). *تاريخ القضاء في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى القرن الخامس هجري*. القاهرة: المؤسسة العربية الحديثة.
- 25- محمد مخلوف. (2003). *شجرة النور الزكية في معرفة طبقات المالكية*. بيروت: دار الكتب.